في الأدب والبناء

الجذور التاريخية للاشتراكية العربية

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري

يمر المجتمع العربي بثورة شاملة تهدف الى تحقيق حريته وضمان وحدته واطلاق امكانياته وبناء مجتمع تسوده العدالة ويعمه الرخاء .

وهي ثورة متصلة الجوانب والحلقات في البلاد العربية ، على الرغم مما يبدو من تركيز او تحديد . فهي ثورة على التسلط الاجنبي اولا في جزء ، وثورة على الاستغلال والتخلف في جزء ، وثورة على التجزئة في جزء ، وثورة على هذه جميعا في اجزاء اخرى من الوطن العربي .

والثورة في شمولها او في جانب منها لا تقتصر على التخلص من وضع ، فذلك لا يعدو ان يكون تهيئة او تمهيدا للثورة الفعلية ، وهي عملية البناء التي تخلف التغيير الكلي ، فتكون جذورها في التربة عابرة الواقع الى المستقبل المرسوم .

وللفكر دوره الكبير في التوعية وفي التمهيد للثورة ، ولا بد ان يكون له دوره الاساسي في البناء . ولكن الفكر لن يؤدي دوره ان ركن الى النقل او اقتصر على التأمل ، بل لا بد ان ينبثق من التراث والواقع ويتفاعل معهما باستمرار .

والمجتمع العربي الان في فوران متصل وحركة دائبة ، تعمه رغبة جارفة لتخطي الزمن واللحاق بركب المدنية وتحقيق اهدافه الكبرى . وقد ادى هذا الى ان تسبق الحوادث نطاق الفكر في كثير من الاحيان وان يأتي التطبيق قبل ان تتحدد النظرية . ان هذه ظاهرة حيوية قوية اورثت الثقة والامل والهبت الطموح ، لذا فانها تفرض على الفكر مسؤولية خطيرة في متابعة الاحداث وتفهمها وفي التخطيط للمستقبل.

ان محتوى الثورة العربية في الحقل الاجتماعي الاقتصادي يمثل جانبا حيويا لهذه الثورة ، وهذا المحتوى يتمثل في الاشتراكية العربية، لانها تمثل مفهوم العدالة الاجتماعية بمعناها الواسع في المجتمع العربي الجديد .

وطبيعي ان يتجه الفكر العربي الى بحث الاشتراكية العربية والى تحديد اطارها الفكري ورسم خطوطها النظرية . وطبيعي في مرحلة مثل هذه ان نرى مجالا رحبا للاجتهاد وللنقل ، وان نحس بازمة فكرية قوية.

ولكن الفكرة لن تستقر ولن ترسخ الا اذا انطلقت من الواقع ووجدت جذورها في التراث ، والا اذا كانت تحقيقا لامال الامة وتجسيدا لامانيها .

ولنا ان نتساءل مبدئيا عن المفهوم الذي تنطوي عليه الاشتراكية العربية وعن محتواها ، وان نفحص سبب نعت هذه الاشتراكية بانها عربية لنرى وجهتنا . فهل نعتبر التطبيق اساسا للتسمية فننعت كل تطبيق اشتراكي باسم البلد الذي يطبقه ؟ ان هذا الاتجاه يفترض ان الاشتراكية واحدة ، حيثما وجدت ، وكيف طبقت ، ولن تعدو التسميات الاوصاف الجغرافية او الاقليمية . والاشتراكية ليست مجرد نظام اقتصادي ، بل هي نظام كلي له قيمه ومفاهيمه ونظرته للحياة . كل هذا يعني قبول هذا النظام وما ينطوي عليه والملاءمة النسبية في التطبيق . اننا لا نقر هذا التفسير ، فهو لا ينطبق على الاشتراكية العربية ، ولا يمكن قبوله مفهوما لها .

ان الامة لا تستطيع التخلي عن ارثها الحضاري وعن قيمها ولا يمكنها ان تنسلخ عن ذاتها ان ارادت البقاء . فكيف اذا ارادت تجديد ذاتها وتحقيق حياة كريمة لابنائها .

ان الاشتراكية العربية ليست صورة اخرى للماركسية ، وانما انبعثت من واقع الامة العربية ومن ارثها الحضاري ، وانها تتمثل قيمها الاساسية ومفاهيمها الخلقية . وهذا لا يعني عزلتها بل انها في الوقت نفسه تستفيد من خبرات الامم الاخرى ومن نتاج الفكر الانساني لاغناء ذاتها .

اننا حين نؤكد على الجذور العربية الاسلامية للاشتراكية العربية، ونؤكد على تمثلها للقيم العربية الاسلامية وللنظرة الاسلامية للحياة ، لا نقصد البحث عن مبررات الاشتراكية منقولة ، في التراث او في احداث التاريخ العربي الاسلامي ، لان هذا لا يعدو وضع اقنعة شفافة على نظام منقول . اننا نريدها اشتراكية عربية في جذورها الحضارية وفي قيمها ونظرتها ، مفتوحة على خبرات العصر الحديث وعلمه .

ان ما ذكرنا لا يعدو ان يكون هدفا عاما ، ولن تكون له دلالته ومعناه الا بالنظر الى الاصول التاريخية .

اننا لا نريد دراسة الفكر الاشتراكي هنا ، ويكفي ان نتحدث عن الماركسية بايجاز تتطلبه طبيعة الموضوع .

اننا نجد في عدد من الحضارات آراء عن العدالة الاجتماعية ، وعن توفير الفرص المتكافئة ، وعن انكار الاستغلال . اننا نجدها في بعض الفكر اليوناني ، ونجدها في الفكر الهندي والصيني ، ونجدها في الفكر المسيحي الوسيط ونجدها في العصور الحديثة قبل قيام الماركسية . ولم تكن هذه الاراء الا رد فعل للمساوىء الاجتماعية وتعبيرا عن تطلع المفكرين والجماعات الى حياة افضل .

ولم تكن الماركسية خارجة عن هذا الاطار العام . فهي نتاج الحضارة الاوروبية الصناعية في القرن التاسع عشر ، وهي تقدم صورة كلية للمجتمع الذي تريده . فهي تعطي تحليلا ديالكتيكيا ماديا للتاريخ البشري ، وتعتبر تغير وسائل الانتاج اساسا لتغيير المجتمع ولتغيير قيمه ومثله وهي تنكر الدين وتعتبره ظاهرة تاريخية عابرة صارت وسيلة استغلال . انها نتاج تطور الحضارة الاوروبية التي قامت مبدئيا على الارث اليوناني والديانة المسيحية واخيرا على النهضة العلمية وعلى ما تخفيه من صراع بين الدين والعلم وعلى هذا الازدواج القلق المتصادم بين النطاق الديني والنطاق الدنيوي .

ولسنا هنا بصدد بحث الثورة الدينية في اوروبا على الكنيسة ، وقيام البروتستانتية ، وما كان لها من اثر في تنشيط الرأسمالية ، ولسنا بصدد تحليل اثر الثورة الفرنسية في ضرب الاقطاع الاوروبي ودفع الحركة القومية الاوروبية وما لازم هذه الحركة من محاولات لتوسيع رقعة الاستعمار ، وبث مفاهيم المساواة بيد والسيادة الغربية بالاخرى وما صحب ذلك من اثار عميقة ، ولكنا نشير الى الثورة التي مهدت لقيام الماركسية وهي الثورة الصناعية . فقد احدثت الثورة الصناعية تحولا واسعا في المجتمعات الغربية ، رافقته مآس اجتماعية خطيرة واوجدت اندفاعا من الاستغلال تجاوزت كل حد وابرزت تناقضات

اجتماعية اقتصادية شديدة . وحصل هذا في عصر من التقدم الفكري الواسع .

ظهرت الماركسية في اطار الحضارة الاوروبية في القرن التاسع عشر ، وهي نتاج مجتمع اوروبي متغطرس يرى مفكروه ان تجارب البشرية انتهت اليه ، وان كل ما حصل او يمكن ان يحصل فيها لا يخرج عن نطاق تجربة المجتمع الغربي .

ولم يشذ ماركس عن هذه النظرة ، بل انطلق منها حين التفت الى التاريخ الغربي وحاول تفسيره ثم حول ذلك الى قوانين عامة لتطور المجتمعات البشرية . والواقع ان مؤرخي الغرب وفلاسفة تاريخه استمروا يحملون نفس الفكرة الى اواسط هذا القرن ، فلما قامت الثورات التحررية الكبرى بين شعوب آسيا وافريقيا بدأوا يدركون خطأ الفكرة وضيقها ويرون انه لا يمكن تعميم اي تفسير لتجارب المجتمعات الغربية على المجتمعات البشرية الاخرى .

جاءت الماركسية بتفسير ديالكتيكي مادي للتاريخ البشري ، واعتبرت تغير وسائل الانتاج وملكيتها اساس تغير المجتمع وتغير مثله وقيمه . اذ يرافق تغير وسائل الانتاج صراع بين الطبقة المسيطرة حاليا والطبقة الجديدة الصاعدة ، وهكذا فالتغيير الجذري لا يكون الا بصراع الطبقات والماركسية تنكر الدين وتعتبره ظاهرة تاريخية وسبيل استغلال .

وهكذا فالماركسية تخضع تطور البشرية لقوانين حديدية ، وتفرض الحتمية في التاريخ . وترى ان قوانينها تصدق على كل المجتمعات بمعنى ان حتمية التاريخ تفرض مرور المجتمعات بنفس الادوار من التغيير التي تراها في المجتمع الغربي ، فهي صور متتالية متوازنة من التغيير في المجتمعات البشرية . وقد تقرب المفاهيم الماركسية لابناء مجتمعنا اذا اشرنا الى محاولات بعض المؤرخين الماركسيين تفسير التاريخ العربي .
فهم يرون ان المجتمع العربي مر قبل الاسلام بالمرحلة البدائية (الرعي) الى مرحلة امتلاك الرقيق وشارف المرحلة الاقطاعية . وهذا التطور ولد أزمة اجتماعية اقتصادية انتجت الاسلام . وحاولت أرستقراطية الملاكين (تجار الرقيق) الخروج من الازمة بالفتوحات ، ونتج عن الفتوحات تحول المجتمع كليا الى مجتمع اقطاعي ، وتم ذلك في العصر العباسي .

فالاسلام اذن نتاج أزمة اقتصادية اجتماعية سببها تبدل علاقات الانتاج وهو تعزيز لصالح الطبقة الناشئة ولا يعدو ان يكون ظاهرة مادية.

ومع ذلك فهم مضطربون في رسم الخطوط . فمنهم من يرى ان الاسلام يلائم مصالح ارستقراطية الرقيق ، بينما يرى اخرون انه يلائم مصالح الطبقات المستغلة من ملاك وارستقراطية الاقطاع ، في حين يرى غيرهم انه لا يلائم مصالح الطبقات الحاكمة الجديدة فلجأ اصحابه الى الوضع في الحديث لتبرير الاستغلال الاقطاعي .

وبينما يقول البعض ان الارستقراطية وحدت القبائل العربية لتحقيق اغراضها ، يقول غيرهم ان القبائل كانت تتوثب للوحدة فجاء الاسلام موحدا يعبر عن ذلك التوثب . بل يضطرب الموقف حتى من نشأة الاسلام ذاته . فبينما يدعي البعض ان محمدا (ص) واحد من عدة انبياء ظهروا وبشروا بالتوحيد ، يذهب اخرون الى نفي شخصية النبي العربي والى اعتباره شخصية اسطورية . وذهب البعض الى ان الاسلام نشأ عن اسطورة وضعت في فترة الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة وان جذورها تعود لاعتقادات سابقة تسمى الحنفية .

وهذا الاضطراب في الرأي والانحراف عن تفهم التاريخ العربي ان هو الا مظهر لفرض نظرية خارجية على التاريخ العربي ، وهو نتيجة لاتخاذ التاريخ سبيلا لتبرير الماركسية ودعمها ، وما ابعد ذلك عن طبيعة التاريخ العربي وعن البحث التاريخي العلمي (تجد تفصيل ذلك في دراسات بيجولفسكايا ، وبلاييف ، وكليموفيج ، وتولستوف) .

ولسنا هنا بصدد تقييم الماركسية حتى بالنسبة لتطور المجتمع الغربي ، ويكفي ان نقول ان الجدل حولها واسع ، وان الماركسية حولت بعض نظراتها من جهة ، كما ان تطورات خطيرة حصلت في غير ما افترضتها نظرتها . ولكن يلزمنا ان نتذكر ان الماركسية نظرية كلية ، وان اسسها تقوم على اعطاء سبب واحد لتغيير المجتمعات ، وهو تبدل وسائل الانتاج ، وان التغيير يحصل عن طريق الصراع بين الطبقات ، وان النواحي الروحية او الفكرية هي ظاهرة لا سبب في تطور المجتمعات . وهذه النظرية تختلف اساسا عن قولنا باهمية العامل الاقتصادي في تغيير المجتمعات ، لان التفسير الاقتصادي لا يعتبر الاقتصاد العامل الوحيد بل عاملا مهما مع عوامل اخرى في تغيير المجتمعات وفي التطور الحضاري .

لننظر الان الى التاريخ العربي لنرى سير المجتمع عبر العصور ولنتفهم طبيعته .

لقد كون المجتمع العربي الاسلامي حضارة تتمثل فيها عبقريته ومفاهيمه . وادق ما في اية حضارة الروح التي تتخللها والقيم والمثل التي تعتز بها .

وجدير بنا ان نتذكر ان هذه الحضارة وجدت اولياتها في الارث الثقافي العربي القديم . وهو ارث عريق يعود لاكثر من الفي سنة قبل الميلاد وتشارك فيه وادي الرافدين واليمن وسورية ومصر . وقد مر النشاط الحضاري العربي بفترات من الازدهار والركود ، ولكن مناطق نشاطه تمثلت قبيل الاسلام في شمال الجزيرة العربية وجنوبها . وأوضح مظاهره اللغة العربية والشعر العربي . وكانت له اصول قديمة في التوحيد على الرغم من طغيان الوثنية في هذه الفترة .

وظهر الاسلام ، ووجد العرب فيه مثلهم وقيمهم ونظرتهم للحياة ، كما وجدوا فيه وحدتهم وطريق انتشارهم على الارض ، ورأوا فيه منطلقا لبناء حضاري جديد .

ومع ان العرب اخذوا في العصر العباسي من الحضارات الاجنبية، الا ان ذلك جاء بعد الفترة التي رسمت فيها خطوط الحضارة العربية واسسها . فقد ظهر النشاط الثقافي في مراكز عربية خالصة في المدينة والبصرة والكوفة ثم الفسطاط ، وتمثل في الدراسات العربية الاسلامية كعلوم الحديث والقرآن والفقه والدراسات التاريخية واللغوية وفي النشاط الادبي الخصب . وبعبارة ابسط ظهرت الدراسات الانسانية واتخذت اطارها قبل البدء بالترجمة مهما كانت اشكالها . وهذه الدراسات تمثل روح الامة وقيمها وتحدد طابعها الثقافي ووجهتها الحضارية .

وحينما اخذ العرب من اليونان اخذوا شيئا من علومهم واخذوا من فلسفتهم وتأثروا بذلك في تطورهم الفكري ، وكل ذلك لم يغير من مثلهم وقيمهم وانما أفادهم في اغناء الجوانب المادية من حضارتهم وافاد في تطوير بعض اساليب التفكير لديهم .

لقد تمثل المجتمع العربي الاسلامي قيما اساسية وكون نظرته للحياة ، وكان المبدأ الاساسي في هذا المجتمع مبدأ العدالة .

لقد تجلت روح العدالة الشاملة في الحضارة العربية وتمثلت في جوانبها المختلفة في السياسة والتشريع والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

تبدو فكرة العدالة في سيادة الشريعة (القانون) على الحاكم والمحكوم وفي استنادها الى النصوص من جهة والى اراء الفقهاء والعلماء من جهة اخرى . والشريعة تؤكد على العدل وتنكر الجور وترى أي خروج على ذلك مهما كان مصدره ضلالا .

وتبدو الفكرة في التأكيد على الشورى وعلى حرمة رأي الامة . وتتمثل الشورى في مجموعة اهل الحل والعقد التي توجد وتدير . وما دامت الامة اساس الكيان العام ، وجب ان يمثل اهل الحل والعقد جماعاتها المختلفة ،وهم خلاصة قابلياتها . ولكن ذلك لا يكفي ، فهناك الرأي الشامل للامة كما يتمثل في مبدأ الاجماع . فمتى اتفقت الامة او اراء فقهائها ومجتهديها على شيء وعد الاتفاق اجماعا كان ذلك ملزما . فاكتسب رأي الامة حرمة ملزمة ، وفتح الباب لتجابه مشاكلها بافق مفتوح بعد مراعاة مصالح الجماعة او الخير العام .

وتتأكد الفكرة في استقلال القضاء عن السلطة وفي صلابة

القضاة في الحق وفي وقوفهم جنب العدالة تجاه المتنفذين وتجاه عامة الافراد .

وتظهر فكرة العدالة في الناحية الاقتصادية في منع الاستغلال باشكاله وفي انكار سيطرة المال والتأكيد على الرعاية الاجتماعية . فالربا محرم ، والاحتكار مرفوض خاصة فيما يتعلق بمعاش الناس . وتظهر الفكرة في وضع حق معلوم للضعفاء يتعدى ما يقدم الفرد في الزكاة والهبة الى الزام الامة بمكافحة الفقر باشكاله . ويصل مفهوم العدالة الى ابعد من ذلك حين يؤكد على ضرورة ضمان مستوى معاشي مقبول للناس كافة . فمع تباين الرأي في شؤون المعيشة بين من يرى المساواة وبين من يقر التباين على اساس الخدمة والفضل ومؤهلات اخرى ، الا ان الاتجاه العام هو الى ضرورة ضمان الحد الادنى لافراد الامة مع السعي لتخفيف الفوارق الاقتصادية حفظا للكيان العام .

وتتمثل فكرة العدالة في اعتبار الاراضي المفتوحة وما فيها من ثروات ملكا مشتركا للامة ووقفا عليها في حاضرها ومستقبلها . ومع قيام عدة محاولات لتجاهل ذلك في فترات مختلفة ، الا ان فكرة ملكية الامة انتصرت ورسخت .

وفي الناحية الاجتماعية تبدو فكرة العدالة في التأكيد على حركة الانسان وكرامته ، وعلى احترام الرأي والتسامح تجاه اراء الاخرين ما دامت لا تهد الكيان المشترك . وتبدو ايضا في التأكيد المطلق في المساواة .

وتتركز فكرة العدالة في اعتبار الجماعة اساس الكيان الاجتماعي وتتجلى هذه الناحية بقوة في فترة الابداع الحضاري ، في بناء المدن والريازة ، وهي فنون جماعية ، وفي الفكر والادب والتاريخ ، في المدارس الفقهية والتاريخية والادبية التي تربطها الفكرة والمعرفة لا الشخصيات .

ومن قيم المجتمع العربي حرمة العمل وحرمة الكسب باليد . ومع ذلك فقد اعتبرت الملكية في الاصل وظيفة اجتماعية يمكن الحد منها بفرض الضريبة او بغير ذلك بضوء هذا المفهوم .

ومن هذه القيم تقدير العلم وتشجيع العلماء وطلبة العلم وتقديم الهبات والمنح لهم وفتح مجالاته دون تمييز ، ويصحب ذلك حب للمعرفة لا يكترث بالمشاق والفاقة . وينعكس ذلك في تقديس شامل للعلم لدى العامة والخاصة .

ومن هذه القيم الاخوة الانسانية ، وعدم التفاضل الا بالعمل والخدمة واعتبار العقيدة اسمى انواع الروابط بين الافراد والجماعات .

ان النظرة الانسانية التي تتخلل المجتمع العربي هي من القيم الاساسية التي جنبت المجتمع التمايز بين الناس بسبب الوانهم وأجناسهم ، وحدت من ظهور مثل هذه الاتجاهات المدمرة في المجتمع. كما ان هذه النظرة الانسانية كانت اساس التعاون بين الجماعات وسبب احترام عقائد الاخرين .

ان القيم العربية الاسلامية ، والنظرة للحياة تمثلت قبل كل شيء في الفكر ، وتمثلت في مظاهر من حياة المجتمع . وعلى الرغم من التطورات والانحرافات ، فان الفكر العربي استمر في تأكيده عليها ، بل لقد كان التأكيد يزداد كلما اتسعت الشقة بين الواقع وبين الفكر .

ويهمنا ان نلاحظ ان حياة المجتمع العربي الاسلامي تأثرت بهذه القيم بصورة اكيدة ، ولكن الواقع مع ذلك يكشف عن اوضاع عملية وتطورات لها أهميتها ، كما شهد المجتمع العربي متناقضات خطيرة .

لقد شهد المجتمع العربي قوى متصارعة ، كما كانت له قوى اخرى للشد والبناء . ويهمنا أن نتفهم هذه لنرى طبيعة تطور المجتمع وتكوينه .

ولنذكر مبدئيا ان المجتمع العربي مر خلال القرن الاول الهجري بصراع ظهرت بعض جوانبه وبقيت الجوانب الاخرى ضمنية وان كانت قوية ، وهو صراع دار بين قوى الثورة الجديدة والبناء وتتمثل في المبادىء والاتجاهات الاسلامية ، وبين قوى المحافظة والتجزئة وهي الاتجاهات القبلية . وتمثل هذا الصراع في النطاق السياسي العام وتمثل في النشاط الفكري والاجتماعي وحتى في التطور الاقتصادي ، ولكن الفترة انتهت بانتصار المبادىء الاسلامية نتيجة قوتها وتوسعها ونتيجة انتقال القبائل في البلاد الجديدة الى حياة مدنية مستقرة .

وتكونت احزاب سياسية نشأت نتيجة الصراع على السلطة بين العرب ، وهي احزاب عربية . وعلى الرغم من انضمام غير العرب الى هذه الاحزاب ، الا ان قيادتها وتوجيهها بقيت بيد الفئات العربية . والمهم ان هذه الاحزاب لم تكن تمثل طبقة اجتماعية دون اخرى ، بل كانت شاملة . وظهرت بالتدريج المدارس الفقهية المختلفة ، وهي مدارس تتصف في تفكيرها بالشمول لمختلف نواحي الحياة ، ورغم الخلافات في الاراء فقد كان لكل مدرسة منزلتها واتباعها دون ان تختص احداها بفئة اجتماعية دون اخرى .

وتحول المجتمع تدريجيا الى الاستقرار ، ورافق ذلك تطورات اقتصادية اجتماعية مهمة . ففي البداية كان بعض اهل المدن لا سيما مكة يشتغلون بالتجارة ووجدوا في الفتوحات سوقا واسعة وتكونت فئة تجارية قوية . اما القبائل فقد عزفت مبدئيا عن الزراعة ، وانصرفت للقتال . ولكن سكناها في المدن الجديدة جعلها تميل تدريجيا الى الاستقرار والزراعة والى ملكية الارض وظهر ذلك خاصة بين اشراف القبائل . وتحولت دور الهجرة ، وهي المعسكرات الاولى كالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان ، الى مراكز حضرية مهمة . وبدأت التجارة تتسع بالتدريج في آفاقها ونطاقها .

وتدرج الامر قبل نهاية القرن الاول الى ظهور الملكيات الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة . وقد حاول عمر بن عبد العزيز الحد من ذلك ولكنه لم يفلح . ودخل الكثير من اهل البلاد المفتوحة في الاسلام وتوسعت فئة الموالي وكان بينهم التجار والصناع والزراع .

ولا بد ان نلاحظ ان الاحزاب السياسية انتشرت بين القبائل وأضعفت التماسك القبلي . كما ان بوادر تيارات مناهضة للسلطان العربي وللوضع القائم بدأت به بشكل مستور بين فئات لم تسلم او فئات تظاهرت بالاسلام وكلها تسترت برايات عربية اسلامية ، وهي لا تعدو ان تكون استمرارا لحركات اجتماعية ظهرت في المجتمع الساساني في ايران واستمرت بعد الفتح الاسلامي بصورة خفية .

كما بدأ تيار المعارضة بين الموالي لدوافع مختلفة تتراوح بين المناداة بالمساواة الاسلامية وبين الطموح الى السلطة .

وجاءت الدعوة العباسية لتضم كافة التيارات المناوئة للسلطان القائم ، وهو سلطان عربي ، وضمت بين صفوف انصارها جميع هذه التيارات وشجعتها ومكنتها من الظهور والاتساع لتجني سياسة التجميع هذه في سلسلة حركات قامت ضد العباسيين وخاصة بين الايرانيين الذين نصروا الثورة العباسية ، مما لم يسبق له مثيل في القرن الاول الهجري .

ولما جاء العباسيون ، اتسع النشاط التجاري ، وتوسعت الملكيات الزراعية بين العرب ، وظهرت تيارات اجتماعية سياسية جديدة نخص بالذكر منها تيارا شعوبية في بعض الجهات وتيارات دينية تناهض الاسلام علنا او من وراء ستار . وظهر تيار اخر وراء هذين وهو رد الفعل لدى الفلاحين في بعض المناطق ــ ولا سيما ايران ــ ضد توسع الملكيات على حساب المزارعين الصغار الذين خسروا اراضيهم وتحولوا الى اجراء متجولين .

ويهمنا ان نلاحظ مظاهر الصراع في المجتمع العربي الاسلامي خلال العصر العباسي لنرى طبيعة الاتجاهات المتضاربة .

لقد تمثلت مظاهر الصراع الكبرى في المجتمع العربي الاسلامي

في القرنين الثاني والثالث للهجرة في المعركة بين العرب والشعوبية، وفي المعركة بين الاسلام والزندقة ، وتمثلت في بعض الحركات الاجتماعية الايرانية كثورات الخرمية ، وهي جميعا مظاهر للصراع بين الشعوب غير العربية ، ولا سيما الفرس ، ودياناتها الموروثة من جهة وبين العرب والاسلام من جهة اخرى . ثم ظهرت في القرن الثالث فما بعد حركات اجتماعية في نطاق المجتمع العربي – الاسلامي مثل ثورة الزنج ، وحركات العيارين والشطار وحركة القرامطة والاسماعيلية . وبينما كانت ثورة الزنج محلية في جنوب العراق ولفترة قصيرة (اربعة عشر عاما) فان حركات العيارين والشطار وحركة الاسماعيلية استمرت قرونا مشيرة بذلك الى ازمة اعمق في المجتمع العربي الاسلامي .

ولنتناول هذه الحركات بايجاز لمعرفة وجهتها وللكشف عن طبيعة التناقضات القائمة .

فالمعركة بين العربية والشعوبية بدأت بمحاولات شعوب غير عربية لمقاومة السلطان العربي المتوثب ، متسترة بمظاهر عربية او اسلامية . وعملت على اضعاف الثقافة العربية الاسلامية والترويج للارث الحضاري الاعجمي ، وحاولت زعزعة السلطان العربي بمهاجمة اركانه ومحاولة هدمها وهي الاسلام والعربية ، كما حاولت تفتيت قيم المجتمع وتفسيخ اخلاقه . وقد برز وجه المعركة في النطاق الثقافي والادبي . فانت تجد بين زعماء الحركة شعراء وادباء لهم مكانتهم مثل بشار بن برد وحماد عجرد وابن المقفع ممن لا يزال دورهم موضع نقاش لحد الان . فالشعوبية لم تكن حركة طبقة اجتماعية ضد طبقة اخرى كما توهم البعض ، لان الذين ساهموا فيها كانوا بين وزير متسلط وتاجر ثري وكاتب في الدواوين وأديب معروف ، ومعهم اناس مثقفون وان لم يكونوا أغنياء . انها كانت صراعا بين العرب وفئات من الشعوب الخاضعة لسلطانهم على العموم ممن لم يتمثلوا المبادىء الاسلامية والمفاهيم الحضارية الجديدة . لذا فاننا نجد بين انصار العربية والاسلام أعلاما لم يكونوا من العرب مثل ابن قتيبة والبلاذري .

وبجنب هذه المعركة ، وتتداخل معها احيانا ، كانت المعركة مع الزندقة . والزندقة في الاصل امتداد لحركة المانوية بعد ان تسترت بمظهر اسلامي . ارادت حركة الزندقة تشويه الاسلام ونسفه من الداخل بعد ان توسع وهدد وجودها ، وارادت ضرب السلطان الذي قام به ، وهذا هو اسلوب المانوية . وقد شارك في المعركة انصار ديانات اخرى مجوسية ولا سيما المزدكية ثم الزردشتية بدرجة اقل . ان الصراع مع الزندقة انما هو صراع بين الاسلام اساس السلطان العربي ، والمجوسية المتسترة بمظاهر خادعة . ان توسع الاسلام وقوته المعنوية هددت المجوسية بالانحسار المتصل ، فكانت حركة الزندقة ظاهرة لرد الفعل، وسبيلا لضرب السلطان العربي ، ومن هنا تداخلت الزندقة والشعوبية . وحين نتحدث عن الزنادقة لا نتحدث عن صراع اجتماعي بل ديني ولا عن فئات منكودة بل نجد اعلام الزندقة بين المترفين وبعض المفكرين .

ولم يقتصر الصراع بين الاسلام وبين ما يستند اليه من سلطان وبين المجوسية على الزندقة ، بل تمثل في حركات تبدو اجتماعية ، كحركة الخرمية . ولم تكن الخرمية الا امتدادا للمزدكية ، تلك الحركة الدينية الاجتماعية التي ظهرت في ايران الساسانية ، طلعت الان بثوب اسلامي وصارت حركة الطبقة العامة في ايران في العصر العباسي الاول . فالخرمية هي امتداد لحركة اجتماعية قديمة نشأت عن ظروف المجتمع الايراني ولكنها حولت السخط الى السلطان العربي والى الاسلام قاعدته بعد ان كانت موجهة ضد السلطان الساساني. والخرمية لم يكونوا مسلمين ولم تكن الغلالة الرقيقة التي ارتدوها كافية لستر حنيقتهم المزدكية .

واذا كانت حركات الشعوبية والزندقة والخرمية مظاهر للصراع الديني السياسي بين شعوب وديانات اجنبية وبين العربية والاسلام، فاننا نجد حركتين اجتماعيتين صدرتا عن ظروف المجتمع الاسلامي في حركة الاسماعيلية ، وفي ثورة الزنج . وصادف ان بدأت انفجارات الحركتين في القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي .

اما ثورة الزنج ، فهي ثورة الرقيق في سباخ البصرة حيث كانوا أرقاء لكبار ملاكي الاراضي في منطقة البصرة ، وحيث جمعوا في اعداد كبيرة . ومع ان بعضهم لم يكن يعرف العربية ، وبعضهم لم يدخل الاسلام ، ومع ان جلهم بقي غريبا عن المجتمع العربي الاسلامي الا ان ثورتهم قادها من خرج باسم المبادىء الاسلامية وباسم العدالة ، وكانت تعبيرا عن ثورة الرقيق على وضع لم يروا فيه الا الضنك والحرمان والاستغلال .

ان ظهور الملكيات الكبيرة في منطقة البصرة وتوفر رؤوس الاموال لدى الملاكين واستعمال اساليب الزراعة الكثيفة ادى الى شراء مجموعا تكبيرة من الرقيق من تجار الرق الذين كانوا يجلبونهم من افريقية ، والى استخدام الالوف من الرقيق السود لكسح السباخ حول البصرة ولاستصلاح الاراضي وزرعها . لقد عاش هؤلاء على هامش المجتمع الاسلامي ولم يروا الا العمل المضني والاستغلال الفظيع الذي يتنافى وابسط المبادىء الاسلامية ، فكانوا في وضعهم المعاشي السيىء وفي تجمعاتهم الكبيرة على الارض حقلا خصبا لكل نداء يصدر باسم العدالة الاجتماعية . وجاء النداء باسم المساواة وباسم المثل الاسلامية .

ومهما قلنا في دوافع صاحب الزنج ، وفي ثقافة الزنوج ، فان ثورة الزنج كانت نتيجة استغلال بشع يتنافى ومبادىء الاسلام ، وظاهرة لصراع مرير بين فئة الرقيق السود وبين المجتمع الماثل امامهم في اصحاب الاقطاعيات والملاكين الكبار في منطقة البصرة . ولكنه صراع لم يكن واضح الاهداف ، فهو لم يقصد الا تحرير الرقيق السود ، ولكن الثوار ذهبوا الى فرض الرق على الاسياد حيث قدروا ، وارتكبوا من التخريب والفضائح ما اثار القاصي والداني عليهم مما ادى الى سحق ثورتهم ومحو اثرهم .

اما حركة القرامطة والاسماعيلية فقد كان لها معنى اوسع واثر ابقى . لقد ظهرت الحركة في فترة تركيز التطور الاقتصادي والاجتماعي . ومع ان الحركة الاسماعيلية انتشرت وبدا نجاحها بعد منتصف القرن الثالث للهجرة فانها بدأت في القرن الثاني ، وهذا يعني انها انتشرت حين توفرت الظروف العامة – اقتصادية واجتماعية – المواتية لنجاحها . فهي نتاج تفاعل الفكر والاوضاع القائمة اقتصادية واجتماعية وسياسية .

لقد حدثت تطورات هامة في المجتمع منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . فقد نشطت التجارة في المجتمع واتسعت افاقها وظهرت طبقة من التجار الكبار لها رؤوس اموال كبيرة وخير مثل لهؤلاء التجار ابن الجصاص الذي بلغ رأسماله ملايين الدنانير . وامتد نطاق التجارة العربية من كوريا الى البلطيق وتغلغل في افريقيا واجزاء من اوروبا . ويسر النشاط التجاري قيام فئة من الصرافين والجهابذة الذين يتعاملون بالنقد ويقومون بدور البنوك في العصر الحاضر بتسيير عمليات الائتمان والتسليف ، وكان جلهم من غير المسلمين . ووصل الامر في مطلع القرن الرابع الى قيام مصرف رسمي تعتمده الحكومة .

وشهدت الفترة توسع الزراعة وظهور اساليب الزراعة الكثيفة وظهور الملكيات الواسعة ولا سيما في السواد وقيام فئة من الاقطاعيين المثرين ، ورافق نشاطهم كثير من الاستغلال وازدياد عدد الفلاحين الاجراء والمتجولين ، فكان هؤلاء الفلاحون بيئة ملائمة لكل الدعوات التي تعد بتحسين الاوضاع .

وفي هذه الفترة اتسعت العامة في المدن وظهرت حركات بين العامة وبين اصحاب الصنائع والحرف ، وذلك – في تنظيمات تهدف الى حماية مصالحهم كما كان شأن الاصناف والنقابات الحرفية ، او في حركات تمرد متصل ينطوي على الثورة على الاوضاع كما في حركات العيارين والشطار .

ان ظروف قيام الحركة الاسماعيلية تكشف عن تضارب المصالح وعن الصراع الاجتماعي والاقتصادي . ومع ان جذور الحركة تتصل

بالغلو الذي ينطوي على اراء غريبة عن الاسلام ، الا أنها طلعت باسم العدالة الاجتماعية . لقد دعت الحركة الى المساواة في نطاق المبادىء وانكرت لفوارق العنصرية باسم الدين ، وارادت حسب دعوة اصحابها ان تكسب الناس جميعا وان تصهرهم في نطاق مبادئها وارائها . وعملت الدعوة الاسماعيلية على احداث ثورة تقلب الاوضاع السياسية وغيرها ، واتخذت من كل الجماعات المتذمرة سلاحا لقلب الاوضاع .

ولا بد ان نبين ان هذه الحركة اتخذت اشكالا وبرامج مختلفة حسب البيئات التي عملت فيها ، وهذا يوضح التباين في برامجها العمليه . فقد دعا القرامطة في السواد الى نوع من الشيوعية حيث لا ملكية فردية ، وليس للفرد الا سلاحه ، وحيث يأخذ كل قدر حاجته ويعطي للجماعه كل انتاجه . واهتم الفاطميون في مصر بزيادة الانتاج وتحسين الوضع المالي ورعاية اصحاب الصنايع والحرف ، وأبدوا تسامحا كبيرا مع جميع الفئات ، ولم يبعد نظامهم كثيرا عن الاوضاع في البلاد العربية الاخرى .

اما في البحرين فقد دعا القرامطه الى نوع من الاشتراكية ، اذ اعتمدوا الاقتصاد الموجه وعملوا على الغاء الرق وعلى تسليف الزراع ومساعدة الصناع ماديا وادبيا وتنشيط انتاجهم ، وسيطروا على التجارة الخارجية وسكوا عملة خاصة لمنع تسرب الثروات للخارج .

ومن الجدير بالذكر ان الحركة الاسماعيلية نجحت في الوصول الى الحكم ودامت في بعض البلاد العربية مثل اليمن ومصر والبحرين ولكنها اخفقت في سورية والعراق . لقد نجحت في مصر والبحرين لانها وضعت تدابير اقتصادية فيها شيء من العدالة الاجتماعية عالجت ظروف المجتمع العربي الاسلامي ، فتمكنت من الاستمرار . اما في العراق فقد جاءت بتدابير تناقض قيم المجتمع ومفاهيمه ولذلك لقيت منه اعنف مقاومة وانتهت في فترة قصيرة . وفي سورية لم ير المجتمع منها الا العنف والتنكيل فنبذها وحاربها دون هوادة . ولم تنجح الحركة في ايران ، وانما تركزت في حركة ارهابية هي حركة الحشاشين التي شكلت تهديدا شاملا للمجتمع الاسلامي معتصمة في قمة جبل حتى لقيت حتفها .

ان تحليل ظروف الحركة الاسماعيلية وانتشارها يكشف عن الفوارق الاقتصادية وعن تضارب المصالح وعن دور المصالح الاقتصادية في التاريخ ، ولكنه يكشف ايضا عن دور الافكار والاراء الدينية في تحريك الجماعات وفي اندفاعها . ومهما قيل عن الجذور الفكرية للحركة وعن تطورها فان دعاتها وجدوا في مبادىء العدالة الاجتماعية في الفكر الاسلامي سبيلا لبث دعوتهم ، ووجدوا في التناقض بين هذه المبادىء والواقع مجالا رحبا لترويج دعوتهم .

وبعد كل هذا فان الحركة الاسماعيلية لم تدم لانها جاءت باراء لا تألف والمفاهيم العامة ، ولذا كان زوالها شاملا الا في اماكن معزولة.

في هذه الفترة نشطت الصناعة وتوسع نطاقها ، وظهرت المعامل كمعامل الزجاج والسكر والورق والجلود والنسيج . وكثرت مجموعا اهل الصنايع والحرف ونظموا انفسهم في اصناف ونقابات لها مفاهيم وشعائرها ولها اثرها في الحياة الاقتصادية .

وقد عملت النقابات والاصناف المهنية على تحسين الانتاج ورفع سوية الصناعه ، وعلى تثبيت الاسعار . كما انها عملت على حماية الصناع ، وعلى تنظيم حياتهم . وكان لكل حرفة درجاتها في الصنعة ولها ممثلوها امام السلطات . وحاولت السلطه من جانبها ا تضع رقابة على نوعية الانتاج وعلى سلوك الاصناف ، وتمثل ذلك في توسيع سلطة المحتسب واعوانه ليشرفوا على الاسواق حيث تتجمع الاصناف . ويهمنا ان نذكر ان الاصناف والحرف كانت تربطها جنب رابطة المهنة قيم خلقية واجتماعية اسلامية ، وانها اتصفت بالتسامح فسمحت للصناع بالانضمام اليها بصرف النظر عن اديانهم واجناسهم وهذا ما لم تعرفه النقابات الاوروبية في العصور الوسطى لانها كانت تبعد عن صفوفها مخالفيها في المذهب او العقيدة كما انها لم تلتزم بمثل هذه القيم الخلقية الواضحة . وكان دور الاصناف كبيرا في الحياة الاقتصادية واحيانا في الحياة العامة .

واذا كانت الاصناف تمثل الجانب السلمي من تنظيمات العامة فان حركات العيارين والشطار تمثل رد فعل عنيف للاوضاع الاقتصاد والسياسية . ويهمنا ان نوضح ان العيارين والشطار ظهروا في صفحات التاريخ بمظهر اللصوص والنهابين ، ولكن كانت لهم تنظيمات سرية ، تشبه النقابات ، وكانت لهم شعائرهم . كما انهم تبلورت لديهم قيم خلقية في الفتوة . وكانت وجهتهم مقاومة السلطة ، وعدم التعرض للضعفاء والنساء بل انهم ادعوا ان المترفين اهملوا مبادىء الدين ونصوص الشريعة فاستغلوا وآذوا الفقراء والضعفاء وان العيارين قاموا لاخذ حقوقهم المهدورة عنوة . وكانت هجماتهم تتركز على رجال الشرطة وعلى التجار . وقد قاموا في بعض الفترات القلقة بحفظ الامن ومكافحة الغزاة الاجانب كما فعلوا في حصار بغداد في منتصف القرن الثالث . ولا ننسى ان نشاطهم قوي في فترات التسلط البويهي والسلجوقي .

بعد هذا ، نود ان نشير الى جانب اخر ، وهو ان الاقطاع الذي عرفته اوروبا والذي عم ارجاءها لم يجد له مثيلا في المجتمع العربي الاسلامي وذلك لان التجارة كانت دائما عاملا مهما في الحياة الاقتصادية ولان الطرق التجارية برية وبحرية كانت مفتوحة بين البلاد الاسلامية والخارج . ومن جهة ثانية نجد العرب في اثناء قيامهم بالفتوحات يعتبرون الفلاحين احرارا ولم يقروا رق الارض ، ولم يعترفوا بالاقنان (وهذا ما يفسر اللجوء فيما بعد الى شراء الرقيق الاسود لاستخدامهم في منطقة البصرة وغيرها) . ولكن هذا لم يمنع ظهور اقطاع من نوع اخر وهو قيام الملكيات الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة وتكاثر الفلاحين الاجراء واستغلالهم من قبل الملاكين الكبار .

وهكذا كان منتظرا في هذه الاوضاع الاقتصادية التي تبلورت في القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي – ان تصطدم المصالح وان يتعرض المجتمع لهزات اجتماعية خطيرة وتمثل ذلك في حركة الاسماعيلية ، وهي ثورة شاملة ، وفي حركات اخرى كحركات العيارين والشطار .

ولكن المجتمع عرف جوانب اخرى . فقد كانت هناك بعض الخدمات التي تقدمها الدولة لفئات الشعب . هناك المستشفيات التي تنشئها الحكومة للعناية بالمرضى وللعلاج المجاني ، وهناك الوقوف الخيرية الواسعة والهبات للمحتاجين والفقراء وللتعليم . هذا اضافة الى الزكاة .

ويمكن ان نشير الى محاولات الحكومات احيانا الى مكافحة الغلاء وتخفيض الاسعار انقاذا للناس من الهلاك . كما نلاحظ محاولات الحكومة احيانا لتسليف الزراع ومعاونتهم لتشجيع الزراعة وتربية

– التتمة على الصفحة ١١٣ –

الجذور التاريخية للاشتراكية العربية

– تتمة المنشور على الصفحة ٢٢ –

الماشية . وجرت محاولات لتخفيض الضرائب على انواع من البضائع المستوردة تيسيرا للناس وتشجيعا على توفيرها . كما نجد محاولات لمكافحة الاحتكار ولا سيما احتكار الاطعمة والمواد الغذائية لوضع حد لاستغلال التجار الجشعين .

كل هذه التدابير لا تعدو ان تكون اثرا لفكرة العدالة التي عرفها المجتمع والتي توخت التخفيف عن كاهل العامة ، ولكنها كانت محدودة الاثر .

وجرت محاولات لفرض ضريبة على المواريث ، وكانت الضريبة المفروضة احيانا تبلغ النصف او اكثر . ولكنها وجدت مقاومة ولم تستقر كضريبة مشروعة .

وان اردنا امثلة اخرى فاننا نجدها في نطاق محدود . ففي البحرين مثلا نجد قيادة جماعية باسم مجلس العقدانية تحكم البلاد . ونجد الحكومة تسيطر على التجارة الخارجية وتسك نقدا من الرصاص وذلك لمنع تسرب الثروة الى الخارج ولتأكيد سياسة الاكتفاء الذاتي والاقتصاد الموجه . كما ان الحكومة حاولت تشجيع الزراع والصناع عن طريق التسليف واعادة النظر في الضرائب وعملت على الغاء الرق . وهي تدابير اريد بها تحقيق العدالة الاجتماعية . وهي ان دلت على شيء فانها تظهر مجالات تطبيق العدالة بضوء الفكر العربي الاسلامي .

ونود ان نذكر اننا لا نؤكد هذه التدابير لنتخذها سبيلا لتبرير اتجاهاتنا الحالية ، بل يهمنا ان تتضح الاراء والمفاهيم التي كانت وراء هذه التدابير والتي تكون جزءا من تراثنا الحي ، ومن قيمنا الاصيلة .

ويمكننا ان نتحدث عن بعض هذه المفاهيم بوضوح . فهناك انكار الاستغلال الذي يؤدي الى اكتناز الاموال والامعان في التسلط على الاخرين . لقد انكر الاسلام ذلك لكي لا تكون هناك دولة بين الاغنياء .

ويتصل بذلك تحريم الربا ، وهو اوضح وابشع ضروب الاستغلال في مجتمع مكة التجاري . وقد هاجم الاسلام الربا اقسى هجوم لانه كان طريق الاغنياء لاستعباد الفقراء . واكد الاسلام على حرمة العمل، بانواعه وضروبه ، وهي نظرة تخالف النظرة البدوية التي تحتقر انواعا من العمل ، وفضل الاسلام العمل على العبادة مع التوكل ، وهي نظرة ازدادت قوة في الفكر العربي الاسلامي على مر الايام ، وحث على الكسب على ان يكون بطرق سليمة وشريفة وعلى ان لا يكون سبيلا للاضرار بالاخرين .

واتجه المجتمع الاسلامي في فترته الاولى ، حين فرض لكل من شارك في الفتوح او الهجرة الى خارج الجزيرة مرتبات وعينات من الاطعمة ، الى تقليل الفروق بين الرواتب وكان حدها الادنى يمثل مستلزمات المعاش الضروري . وهو اتجاه استمر اثره في الفكر العربي الاسلامي .

واعتبر الاسلام الموارد الطبيعية الرئيسية ملكا مشتركا للامة، ثم شمل الاراضي وطبق ذلك على الاراضي المفتوحة . واعتبر المعادن في جوف الارض ملك الامة في الاساس تستغلها مباشرة ان ارادت او تسمح باستغلالها على ان يكون خمس واردها لبيت المال .

وبجنب ذلك ترك الاسلام مجالا للنشاط الفردي . فالارض الموات في الاصل للامة ، لها ان تحييها وتفيد منها ، ولها ان تسمح للافراد باحيائها . وكذا الامر بالنسبة للمعادن فهي في الاصل للامة وقد تسمح الحكومة للافراد او الشركات باستغلالها مقابل دفع الخمس ، كما حصل بالنسبة للمناجم على حدود النوبة .

وفرض الاسلام تقسيم الميراث ، ولم يتجه المجتمع الى حصره في وريث واحد كما حصل في المجتمعات الاخرى . وكان ذلك سبيلا لتحقيق العدل ولمنع تكدس الثروة بايد قليلة . ومع ان الفكر اتجه الى عدم فرض ضريبة على المواريث الا ان البعض رأى ذلك وأجاز التوسع في فرض الضريبة للصالح العام .

عرف المجتمع العربي تلك التطورات الاقتصادية التي ادت الى حدوث هزات فيه . ولكن الوضع اصابه تحول خطير حين خضع للسيطرة الاجنبية ، بويهية ثم سلجوقية . ادت هذه السيطرة الى تضاؤل الخدمات الاجتماعية او انعدامها ، وادت الى استغلال خيرات البلاد من قبل الاجنبي وعلى حساب ابنائها . وادخل هؤلاء المحتلون الاقطاع العسكري او اعطاء الاراضي المزروعة للقادة والامراء لينتفعوا بمواردها دون ان يعنوا بري الارض او بالزراعة . وضعف النشاط التجاري ، وظهرت فئة من الاتباع والمستغلين يتعاونون مع الاجنبي على افقار المجتمع واستغلاله . وحاول الاجانب اثارة اسباب الفرقة من نعرات مذهبية الى تمييز عنصري .

وكان من اثار ذلك ان اهمل نظام الري وكثرت الضرائب ، فتدهورت الزراعة ، واستشرت البداوة على حساب الحاضرة ، وتدهورت حركة التجارة ، وشاعت الفوضى والفتن . واصبحت هذه قصة البلاد في فترات التسلط الاجنبي التي دامت قرونا طويلة .

وعلى الرغم من هذا الانحلال ، فان الفكر لم يركد ، بل استمر نشاطه فترات طويلة ، ولاسيما في المدارس التي ازدهرت منذ القرن الخامس الهجري – الحادي عشر للميلاد . ومع انه فكر يقل اصالة عن الفترات الماضية ، الا انه لم يعدم مفكرين افذاذا . والمهم فيه انه حفظ مفاهيم الفكر العربي الاسلامي في العدالة الاجتماعية والحياة الكريمة ، وحفظ جذوة الحرية والكرامة .

ومن ناحية اخرى ، ادت السيطرة الاجنبية وما رافقها الى افقار الشعب والى هبوط مستوى المعيشة الى درجة بعيدة . ومن مظاهر ذلك اننا نجد بين صفوف العيارين والشطار جماعة من الطالبيين والعباسيين .

ان سيطرة الاجانب ادت الى توسع حركات العامة . كما يظهر من اشتداد حركات العيارين والشطار ، والى توسع حركة الفئات الشعبية ضد السلطة الاجنبية ، والى ظهور وعي لم يسبق له مثيل . وحين ننظر الى حركة العامة ، ولا سيما في القرن الرابع وما بعده ، نجد انها تتخذ فيما خلفية واضحة مكنت من اعادة تنظيمهم في حركة الفتوة في اواخر القرن السادس الهجري من قبل الناصر لدين الله .

لقد كان للعامة تنظيماتهم ، في نقابات واصناف ، وكانت لهم حركاتهم التي اتخذت طابعا سلبيا في الظاهر حتى اتهموا باللصوصية وبالعبث بالامن ولم تكن القيم الايجابية لديهم مفهومة ومنها مساعدة الضعيف ومكافحة المستغلين من تجار ومتنفذين . ولكن الحركة بعد التسلط الاجنبي اتخذت طابعا شعبيا توسع بمرور الايام وتعاونت مع العباسيين في اواخر ايامهم ضد الاجنبي وتلاحمت تنظيمات العامة في حركات الفتوة التي رأت الصلة بين التسلط الاجنبي وبين الاستغلال والظلم . وبات من اهدافها تحقيق العدل ، ومكافحة الفوضى ، وحماية المظلومين ومكافحة الطغاة .

لقد كان الوعي العربي قويا قبل هذه الفترات المتأخرة ، وكان يتمثل في الكتاب وفي فئات من المتنفذين ، وكان يستند الى العروبة والى المبادىء والقيم العربية الاسلامية . ولكن التسلط الاجنبي وسع قاعدة الوعي ، وجعله يتمثل في القاعدة الشعبية وفي الفكر . وقد تنبه العباسيون الى اهمية القاعدة الشعبية في اواخر القرن السادس ، حين اتفقوا مع الحركة الشعبية في تنظيم الفتوة ، وحين ترأس الناصر لدين الله هذه الحركة وحين حاول جعلها سندا لكيانه وحاول بثها في الافاق وجعل مرجعها اليه . حدث هذا التطور الخطير بعد فوات الاوان اذ سرعان ما غمرت الموجة المغولية كل شيء وبقي

الشعب العربي يصارع الكوارث والاحداث .

لقد ارتبطت فكرة الحـرية والعيش الكريم بمقارعة التسلط الاجنبي ومكافحة استغلاله والتخلص من ركائزه . واتخذ الوعي العربي سمة شعبية استمرت خلال تلك الفترات ، يعززه التراث العربـي والمبادىء الاسلامية . ومع ان الوعي هذا بدا مبعثرا او مجزءا فيفترات مختلفة الا ان جذوره الوحدة استمرت ووجد احيانا بين المفكريـن من يغذيه ، وفي الاحداث ما يذكي جذوته .

ويبقى الوعي العربي يستند الى مصادر حيوية ، فيجد فـي العروبة وفي الارث الثقافي العربي قاعدة واساس وحدته ، عـلى الرغم من التجزئة المصطنعة والمحاولات المتصلة لطمس ذاته ، ويجـد في المبادىء الاسلامية وفي القيم الخلقية والمثل الانسانية روحـه ونبع حيويته .

ومع ان تاريخ الامة يكون سلسلة متصلة الحلقات ، بمعنى ان كل حلقة تؤدي الى التي تليها ، فان بعض فترات تاريخ الامة تبقى مصدر حيويه في تطلعها الى حياة افضل . ولذا نجد الامة العربية فـي يقظتها الحديثة واندفاعها القوي تتطلع الى تلك الفترات التي تمثلت بالحيوية والابداع والتكوين الحضاري ، الى فترات التاريخ العربـي الاسلامي الاولى ، فترات القوة والبناء . وطبيعي ان تتخطى الامـة العربية وهي تستعيد ذاتها وتستلهم ارثها وقيمها ، طبيعي ان تتخطى فترات الخضوع والركود وان تنظر الى فترات الابداع الحضاري لتنفض عنها الرواسب ، ولتغذي جذور الحياة فيها وتغنيها فيسبيـل بنـاء حياة جديـدة .

والحياة الجديدة لا تبنى بالتأملات النظرية ، ولا تقـوم بالاراء المجردة ، بل هي عملية تجديد عضوي وبناء متصل . انها تبعث نتيجة تفاعل عاملين أساسيين : اولهما عامل الوعي الذاتي الذي لا يخبـو مطلقا ، لكنه يقوى في بعض الفترات ويضعف في فترات أخرى . وفي هذا الوعي الذاتي تتمثل اسس حيوية الامة ومنابع قوتها . وهو كلما اتسع وازداد عمقا ازداد ارتواء من تلـك المنابع ، وازداد اصالة ونفض عنه الرواسب وارتفع عن التقليد ، والفرق كبير بين التقليد وبين الاخذ الذي يزيده قوة وغنى . وثاني هذين العاملين ، التحديات التـي يتعرض لها الوعي ، وهي تحديات خارجية وداخلية . ولقد تعـرض الوعي العربي عند بزوغه في العصر الحديث لتحديات داخلية ، تتمثل في التخلف والركود وفي الاستغلال الاجنبي والمصالح المركزة . ثـم تعرض المجتمع العربي في اواخر القرن التاسع عشر لتحديات زمـرة الاتحاد والترقي في محاولة يائسة لتتريكه ولطمس ثقافته وذاتـه . ثم تعرض لتحديات الغزو الغربي ، التي بدأت فكرية واقتصادية ، ثـم طغت في الغزو العسكري والسياسي . وهي تحديات ندر ان شهد المجتمع العربي لها مثيلا في الاتساع والشدة والاستغلال .

تعرض المجتمع العربي لهذه التحديات ، وهو مجزأ ، تتناسى البعثرة والضياع ، وهو متخلف غير مهيأ لهذه الاخطار ، فكان بين ان ينهار ويفقد ذاته وبين ان يأخذ طريق الكفاح الشاق المتصل ليجـدد الحياة التي يريد .

وكان امام المجتمع ان يعزل نفسه عن التيارات الحضاريةالحديثة لارتباطها بمصادر الاعتداءات والاستغلال ، كما اراد البعض ، وبين ان يفيد من انجازات خصومه ومن امكانياتهم واسلحتهم ، ليكون في وضـع اقوى على مجابهة الاخطار وليكون اقدر علىتجديد ذاته كما اراد آخرون، فاختار السبيل الثاني بعد جهد وجهاد طويلين .

ولسنا هنا بصـدد تحليل تطور الوعي العربي فتلك قصـة طويلة ، ولكننا نريد ان نلمس بايجاز خطوط مراحله التي ادت الـى الثورة العربية الشاملة التي تمر بها والتي رسمت اهدافها الكبـرى بالحرية والوحدة وبالعدالة الاجتماعية ، او الاشتراكية العربية ، وهي اهداف متشابكة شاملة ، وان نرى صلة هذا الوعي بجذوره الحضارية وبتراثـه .

بدأ الوعي العربي الحديث قبل اكثر من قرن بين فئـات من المثقفين الواعين ، وربط التخلف والاستغلال بالتسلط الاجنبي ، وهي صورة طبيعية تكونت لدى المجتمع منذ قرون واكدتها الفترات السود المتعاقبة مذ فقدت الامة حريتها . بدأ الوعي ذاتيا ورأى في الخطـر الاجنبي حافزا لاصلاح الذات وللعمل .

واتجه ممثلو الوعي الى التراث بما فيه اللغة يحاولون احيـاءه وتسييره ، ورأوا في التاريخ سبيلا لتكوين الثقة بالنفس ، ولكنهـم نظروا اليه نظرة عاطفية استمرت مدة طويلة . ورأوا في صدر الاسلام مثلا يرجعون اليه يستلهمون مثله ويستنيرون بمبادئه . وكان الهدف الذي ارادوه بث الحيوية في مجتمع راكد والعمل على التجديد وعلى التحرر من التسلط الاجنبي . ورافقت ذلك نظرة عاطفية الى الوحدة، لا سيما ان جل البلاد العربية كانت تحت الحكم العثماني .

وجاء التحدي الغربي ، ثقافيا واقتصاديا ، وبدأ تسلط الغرب على اطراف العالم العربي في شمال افريقيا وعلى سواحل الجـزيرة العربيـة ، وبدأ يهدد قلب العالم العربي ، وتأثر البعض بالفكـر الليبرالـي وبمبادىء الثورة الفرنسية واتسعت الدعوةالى الحرية. وكانت خطوط الحيوية تتمثل في الدعوة الى تجديد الاسلام وفيالعمل على تأكيد العروبة ، وكان الخطان متداخلين . وظهرت الجمعيـات العربية لتقوم بدورها في التوعية . ثم ظهرت الدعوة صريحـة الى التحرر والاستقلال .

وطغت الموجه الغربية سياسيا وشهد المجتمع العربي المجزأ بين دول الغرب في العقد الثاني من القرن العشرين مرارة التجزئة العنيفة وخطر فقدان الذات والانجراف في الموجة الغربية . وكان التحـدي عنيفا قاسيا للوعي العربي اكد مقاومته ووسع افقه ، وشهد المجتمع العربي انواعا من الاستغلال الاقتصادي والتسلط السياسي لم يشهـد مثله . وكان التحدي شديدا .

وجاءت ردود الفعل متماثلة في الخطوط العريضة ، ولكن التجزئة شغلت كل جزء بنفسه . وازداد الوعي العربي قوة في السعة والعمق ولم يعدم الاتصال والتجاوب بين الاجزاء . واتجه الجهاد العربـي الى التحرر السياسي من الكابوس الاجنبي من جهة والى العنايـة بالثروات لتحقق الذات . وكان الرأي ان التخلص من الاستعمار يعني تحقيق الحرية والتخلص من الادواء والمشاكل . وبدأت الاحـزاب

السياسية تظهر لتقوم بدور في التوعية ولتساهم في المركة بدرجات مختلفة .

وشهدت البلاد العربية سلسلة من الثورات المسلحة ضد الاستعمار في البلاد العربية في اسيا وافريقيا ، وكانت هذه الثورات منفصلة في البدء ، وان وجدت صداها الفعال في البلاد الاخرى . وكانت جميعا تدعو الى الاستقلال والى طرد الاجنبي . وحصلت بعض البلاد العربية على نوع من الكيان . وصحب ذلك دعوات الى برامج اصلاحية لم تنفذ بعيدا ولم تحدث تغييرات اساسية . واتسعت قاعدة الوعي وبدأ يتغلغل بشكل محدود ومتدرج بين الجماهير .

وفي هذه الفترة لم تتعد الدعوة للوحدة حدود التشكيلات . وعلى الرغم من انتشار التعليم والثقافة لم تحصل اصلاحات تذكر في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية . ولم يستند الحكم الى الشعب على الرغم من الاشكال البرلمانية التي خدمت المصالح القائمة . وبرزت المصالح المرتبطة بالتجزئة والنظرات المتصلة بها ، كما ظهرت مصالح ترتبط بالدول المتسلطة وقامت مصالح اقتصادية جديدة ، ترتبط باوضاع التبعية . وهكذا ظهرت الكيانات بانواع جديدة من التبعية ه

وتبين ان احياء التراث وحده والتمجد بالماضي بروح عاطفية قد يؤدي الى التواكل والى نسيان الحاضر ومتطلباته . وعصفت بالمجتمع العربي تيارات من الاراء الغربية ودخل في دوامة الاراء المصطرعة وكان المجتمع فراغا مفتوحا لكل وارد ووافد .

وتعرض المجتمع العربي من جديد ، مع التجزئة القائمة ، الى اقسى التحديات الغربية في كارثة فلسطين التي كشفت بدورها عن هزال الكيانات وعن دور التبعية وتركزها وزيفها وعن اخطار التجزئة على الوجود العربي . وكشفت هذه الكارثة عن الهوة الواسعة بين الجماهير وبين الفئات الحاكمة . لقد تحدت هذه الكارثة طاقات الامة العربية ووجودها ، ودفعت بها في طريق الكفاح الجديد طريق الثورة العربية .

ثم جاء العدوان الثلاثي ليخير الامة العربية بين طريق الكرامة وبين الانحدار الكلي الى التبعية والعبودية . وكان اثره بعيدا في توضيح الطريق الثوري بكشف جذور التبعية المحلية والاستغلال المحلي وفي الاتجاه الى خط التحرر والعدالة الاجتماعية .

وكان لفترة الحرب الثانية دورها في توجيه الانتباه الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، كما ان الحركات التحررية في اسيا كان لها اثرها الملموس في البلاد العربية .

وكان من اثر هذه العوامل والاوضاع أن مر الوعي العربي في منتصف القرن الحالي بمرحلة نقد جذري للذات . لقد تكون مفهوم جديد للتحرر وهو التخلص من كل انواع التبعية والتخلص من الكيانات المقرونة بالتبعية . وتكون مفهوم جديد للحرية ، لا عن طريق الشكليات البرلمانية التي تختفي وراءها تحكم فئة محدودة ، بل باستناد الحكم الى الجماهير والارتكاز الى القواعد الشعبية . وتبين ان الدعوة الى الاصلاحات التدريجية في عالم سريع الحركة والتحول لا تعني الا تأكيد التخلف وابقاء التبعية بشكل او باخر ، وان لا طريق الا بالتغيير الجذري الذي يتخطى التخلف ويدفع بالطاقات العربية الى اقصى امكانياتها في البناء .

وتبين ، نتيجة اتساع الوعي العربي وعمقه ، ان كل تغيير لا يضع مصلحة جماهير الشعب في الاساس ولا سيما في الحقل الاقتصادي والاجتماعي لن يكون له اثر يذكر غير تأكيد التبعية والاستغلال بشكل او باخر . بل ان التغيير الجذري لا معنى له ولا وجود الان يكون لصالح الجماهير ليكونوا قاعدته واساسه . ومن هنا برزت العدالة الاجتماعية ضرورة اولية في الحديث عن اي بناء متين .

وقبل هذا كله وبعده ، بدأ يتضح ان احياء التراث والعناية بالعربية وحدها لا يكفي ان اردنا ان يكون البناء عربيا في جوهره يمثل قيم الامة ومبادئها الانسانية . واتضح ان كل بناء لايتمثل نظرة الامة للحياة وقيمها ولا تكون جذوره في التربية العربية لا يمكن ان يرسخ وان يحقق امكانيات الامة واهدافها .

بضوء هذا ، وجب فحص ارث الامة وتقييمه ، والكشف عن مصادر حيويتها وطاقاتها واتخاذ المثل والقيم والاتجاهات التي يمكن الركون اليها في البناء الجديد الذي نريد . وكان طبيعيا ان نجد في المبادىء الاسلامية بنظراتها الانسانية وبمفاهيمها التعاونية وفي القيم الروحية والمثل الخلقية اساسا للبناء ، وهذا منطلق واضح في طريق عملنا وتفكيرنا .

اننا حين ننظر الى التراث وما يحتويه من مبادىء حية ومثل وقيم وما ينطوي عليه من خبرات انما نريد ان نتفهم جذور هذه الاتجاهات الثورية في الوعي العربي الان . اننا لا نريد البحث عن تبريرات لاراء سبق ان نادينا بها بل لنكشف ان هذه الاراء تعبير ذاتي عن طبيعة الوعي الثوري واتجاهاته .

لقد اكدنا تراثنا الفكري على منع الاستغلال باشكاله فانكر الاحتكار مثلا لئلا يتحكم البعض في حياة الناس ومعاشهم . وحرم الاسلام الربا ليمنع نوعا بشعا من الاستغلال واتجه الى الحد من الفوارق في الملكية لكي لا تكون بين الاغنياء دولة وليمنع تحكم فئة في اخرى . ويتمثل هذا في تصنيف الاعطيات والرواتب زمن الراشدين كمحاولة عملية لتحقيق ذلك . هذا هو المبدأ الذي يتخلل الفكر العربي، وجاءت الانحرافات العملية وعرضت المجتمع لهزات خطيرة يمكن ان تكون حافزا اخر للسير في طريق العدالة الاجتماعية .

ويرتبط بهذا المبدأ المحاولات الواسعة لتيسير التعليم وتوفيره ، ولتوفير العناية الصحية بالمستشفيات المجانية في المجتمع العربي ، والمحاولات التي اتخذت لتوفير الرعاية الاجتماعية .

وفي تراثنا تأكيد للتعاون كاساس للعمل ونكران الذات الفردية في ذلك . وكان هذا المبدأ من اهم الاسس التي قام عليها المجتمع في دور تقدمه وابداعه . ظهر هذا المبدأ في التعاون الزراعي في القرى في بعض البلاد العربية ، وظهر في نطاق العمل وتنظيماته كما ظهر في المجال الاجتماعي .

ومن المبادىء التي أكد عليها الفكر العربي الاسلامي تأكيد حرمة العمل ، والحث على الكسب الحلال وترك التواكل ، لضمان العيش الكريم . وهو تأكيد تحوطه قيم خلقية اساسية ، منها تحديد هذا العمل بخير الامة ومصالحها وان لا يكون سبيلا للاضرار بالاخرين .

ويتصل بهذا طبيعة الملكية الفردية ، فهي وان كانت محترمة الا انها لا تعدو من حيث المبدأ ان تكون وظيفة اجتماعية ، وللامة ان تنتهج حيالها ما تراه اضمن لمصلحتها بالتقييد او الحد او التوجيه . ويمتد هذا الى الضرائب التي تفرض وهي في الاساس ضرائب يراد بها خدمة المجتمع لتقليص الثروة في جهة وتقديم العون الى المحتاجين ولكنها لم تؤد الى النتيجة المنطقية بعد التطورات العملية . كما ان نظام الارث استهدف منع تكديس الثروات والوقوف في وجه التسلط الاقتصادي .

وهناك مبدأ أساسي ، وهو ملكية الامة لمصادر الثروة في المجتمع او لوسائل الانتاج وكذا للمرافق العامة الاساسية . فالارض والماء والمراعي هي ملك الامة والمعادن هي في الاساس ملك الامة تديرها وتشرف عليها الحكومة باسمها ولمصلحتها . وليس التأميم الا ملكية الامة لوسائل الانتاج واشرافها على طريقة استغلالها لمصلحتها .

وقد سيطرت الدولة على بعض الصناعات الرئيسية للصالح العام مثل صناعة بعض الاقمشة (الطراز) والاسلحة . وهذا تعبير عن مبدأ يتصل تطبيقه بخطة الامة ووجهتها وتتضح حدوده بضوء ذلك .

ومن المبادىء الاساسية للمجتمع العربي الاسلامي مبدأ الثورة لرفع الجور ولتحقيق العدل ولبناء مجتمع افضل . وهل كان الاسلام الا ثورة شاملة قلبت الاوضاع واحدثت تغييرات جذرية في نواحي المجتمع كلها . وقد عرف المجتمع العربي الاسلامي اكثر من ثورة للقضاء على الجور ولتحقيق العدالة . وقبل هذه المبادىء وبعدها ، مبدأ

اساسي هو أن الامة هي الاساس وكل عمل عام وكل مصلحة حكومية انما تقوم باسمها ولخدمتها . هذا هو المبدأ الذي اكده الفكر العربي في كل الظروف حتى في احلكها . كما ان الولاء لها اساس كل ولاء وبداية كل عمل عام . ولذا كان مبدأ الشورى اول مبادئنا ، ولذا كان الاجماع اساسا حيا في التشريع عبر العصور .

وقد وجدت هذه المفاهيم تطبيقها العملي في صدر الاسلام . فهناك نلاحظ أن الامة يحوطها العقيدة وتشدها في تكوين واحد ، وان كل فئات الامة تعمل في خطوط واحدة . ولما كانت رسالة الامة الخارجية الجهاد ورسالتها الداخلية البناء نجد ان رأيها يتبلور في رأي فئات الامة كافة وانها بمجموعها تكون الجيش الذي حمل الرسالة للخارج ، كما نجد ان نظام الضرائب ، وبناء المدن الجديدة (دور الهجرة) ونظام العطاء وضع ليحقق هذه المفاهيم في تخطيط واحد .

كل هذا يعني وحدة العمل العام ، ووحدة الخطوط التي تحقق الاهداف الرئيسية في نطاق واضح ، ووضع التنظيم المستند الى العقيدة والذي يمكن من تحقيق الاهداف الرئيسية . ولم يجد المجتمع باسا في تنوع الاجتهاد في اطار الخطوط الرئيسية والاهداف العامة ، بل انه رحب بذلك .

ولا بد ان نشير الى مبدأ اخر ، وهو ان المجتمع العربي اكد على المبادىء والقيم الاساسية وان التشريع انبثق عنها بضوء التطورات العملية والحاجات . ولذا نجد الخبرة والتطبيق تسبق التشريعات التفصيلية مع الرجوع الى اصول واحدة لفرض التشريع . وهذا يعني ان التطبيقات العملية او تجربة المجتمع وواقعه كانت نقطة الابتداء واساس التفكير . ولذا نجد التأكيد باستمرار على صالح الامة وعلى الضرورات التي يوجبها تطور اوضاعها .

واخيرا نذكر ان المجتمع العربي الاسلامي اكد في جميع الظروف على مبدأ العدالة الشاملة ، واعتبر ذلك اساس كل خير وقاعدة البناء . ويتمثل مبدأ العدالة في تساوي الحاكم والمحكوم امام القانون وفي التكافل الاجتماعي ، وفي الكثير من الخدمات الاجتماعية التي قامت بها الدولة في فترات مختلفة وفي تيسير التعليم وفتحه للجميع . والمهم ان مبدأ العدالة يعتبر القاعدة الاولى للمجتمع العربي الاسلامي .

اننا حين نذكر هذه المبادىء التي تتخلل تراثنا العربي الاسلامي، بعد ان تعرضنا لخبرات المجتمع العربي ، انما نريد ان نبين أن العدالة الاجتماعية التي نريد ، اوالاشتراكية العربية ، لها مفاهيمها وقيمها الاصيلة . كما انها نبين أن الوجهة العملية او التخطيط انما ينبثق من طبيعة الوعي العربي ، ومن واقعنا الذي يفرض علينا التغيير الجذري لنتوصل الى بناء مجتمع عادل مرفه .

ونحن نلاحظ ان فترات الازدهار والبناء هي فترات الحرية الشاملة للامة ، وللفرد في نطاقها وضمن اهدافها، وان هذا الازدهار كان حين تضافرت فئات الامة وقواها في اطار العقيدة الواحدة وحين لم يشع الاستغلال الداخلي .

ونحن نرى بعد هذا ان المبادىء الاساسية التي تتخلل التدابير العملية التي نهجتها الاشتراكية العربية والقيم التي تتخللها هي مبادىء وقيم نابعة من صميم تراثنا . كما اننا لاحظنا ان الوجهة العملية والتطبيقات صادرة عن واقع المجتمع العربي بضوء متطلبات الثورة العربية وفي سبيل تحقيق اهدافها .

ونحن بعد هذا لا نعيش الان ، كما لم نعش في الماضي بمعزل عن تجارب البشرية وعن خبراتها العلمية والعملية ، بل اننا نريد ان نفيد منها باذهان مفتوحة . وهذه نظرة عربية تخللت فترات البناء والازدهار للمجتمع العربي .

ان العدالة الاجتماعية التي ننشد تتمثل في الاشتراكية العربية وهي حصيلة مثلنا وقيمنا ومبادئنا الانسانية ، في تفاعلها الايجابي مع واقعنا وفي سبيل المجتمع الجديد الذي نريد مستفيدة في تطبيقاتها من تجارب البشرية وتطورها العلمي .

الدكتور عبد العزيز الدوري


رامبلر ٦٤
عنوان التقدم التكنيكي
مُبيع بالتقسيط لمدة
٢٤ شهرًا
استعادة جميع انواع
السيارات المستعملة
مجموعة كبيرة من الموديلات ٢٢٠
ابتداءً من ٨٩٥٠ ل.ل
الوكلاء العامون: انطوان أبو خاطر - الصيفي - تلفون: ٢٣٤٥٩٣-٢٣٠٣٦٩
Pub. KAZAN